اليزابيث براوننج

عزيمة لا تلين

obeikandl.com

يقولون: إن الكبت يولد الانفجار..!

وفى المجتمعات المتخلفة يسيطر الرجل على بيته.. ويصير طاغية ظالماً.. يحبس بناته داخل الجدران.. ويسمح للذكور من أولاده بكل شئ.. لكن ما بالنا لو حدث ذلك فى مجتمع يقال عنه أنه متقدم.

كانت أسرة باريت تعيش فى قصر ريفي بالقرب من لندن.. وكان باريت هذا غريب الأطوار.. قاسي السلوك.. جهم الوجه.. استبد بأولاده استبداداً وحرمهم من مخالطة الناس.. وسمح لهم أن يتعاملوا مع من يوافق هو عليه.

رزق باريت فى عام ١٨٠٦م بابنته (اليزابيث) وكانت كبرى بناته غير تسعة صبية آخرين.. وما يدل على غرابة أطواره أنه أطلق على الصبيين الآخرين اللذين رزق بهما: السابع.. والثامن.

ونشأت اليزابيث فى هذا القصر الكبير.. والذى مثل لها سجناً فولاذياً فرضه أبوها عليها.. إذ حرم عليها الخروج من الدار ومن الحديقة المحيطة بها.. كما لم يسمح لها – مثل إخوتها – ارتياد المدرسة حتى لا تختلط بغيرها من الأطفال.. واكتفي باستدعاء المدرسات والمدرسين إلى الدار فى ساعات معينة من النهار.

واكتفت اليزابيث بقراءة الأدب والعلم فى مكتبة أبيها.. لكنها كانت أكثر الأبناء حساسية وتمرداً.. فبدأت تعبر عن

ذلك فى أشعار ساذجة جميلة.. نبهت الأب الطاغية إلى نبوغ ابنته.. ولكنه بالرغم من ذلك آثر عدم المبالاة.. بل أخذ يمارس ضغطاً نفسياً شديداً.

وكانت اليزابيث فى هذه المرحلة متأثرة بتوجيهات معلم إخوتها الأديب القدير (بويد).. ولكن أباها منعها من حضور درسه فكانت تنتابها بين الحين والآخر نوبات عصبية حادة.. لم تتوقف إلا عندما سمح لها أبوها بحضور جلساته.

ولما بلغ أخوها إدوارد عامه الثالث عشر.. أرسله أبوه إلى المدرسة وطلبت اليزابيث مرافقته.. لكن أباها رفض طلبها لأنها فتاة.. ولأن التقاليد تقضي بأن تقيم الفتاة فى البيت ولا تذهب إلى المدرسة.. فثارت الفتاة ثورة شديدة.. وسمح لها أبوها أن تطوف فى مكتبته وحدد لها جانباً منها لا تقرب غيره.. فقرأت هوميروس وشكسبير وميلتون وبايرون وأفلاطون، وتاقت إلى الانطلاق فبدأت تكتب مذاكراتها.. وبعض القصائد الحزينة.

لكن ذلك كله لم يشعرها بالحرية.. ولم يخفف أبوها قبضته عليها بل على العكس تماماً كان يرقبها عن قرب.. ويزيد من ضغطه على نفسيتها فبدأت تضرب عن الطعام.. وتكثر من البكاء.. وعاودتها النوبات العصبية الحادة وبدأت تظهر عليها بوادر الضعف الجسماني.. رافضة مغادرة فراشها وغرفتها.

وتوالي عليها الأطباء.. وقرروا أن علتها نفسية.. لكن أباها لم يقتنع بهذا التشخيص.. ومع مرور الوقت صارت اليزابيث الشاعرة الصغيرة فتاة مقعدة تماماً.. ولم تعد تقوى على الحركة.. فشبت معزولة عن العالم مقيدة فى أغلال أبيها.. مكتفية بالتعبير عن ذلك كله بالشعر وكتابة المذكرات.

كان أخوها إدوارد أكثر الناس قرباً منها.. إذ جمعت بينهما صداقة عميقة وجاء يوم أصيبت به اليزابيث بالتهاب رئوي حاد، وأشار الأطباء على أبيها بضرورة إبعادها عن الرطوبة والضباب.. ويلين أبوها هذه المرة ويسمح لها ولأخيها إدوارد بالسفر إلى مكان دافئ على الشاطئ الجنوبي..

وما هى إلا أيام حتى غرق أخوها تحت نافذة غرفتها وهو يسبح فأصيبت بصدمة نفسية عنيفة وخيل إليها أنها المسئولة عما حدث لأخيها ثم توفيت أمها فى وقت كانت فى أمس الحاجة إليها.. فقرر أبوها الانتقال مع أسرته إلى لندن وضاعف من قسوته فى معاملة أولاده.

ويبدو أن العزلة قد شحذت مواهبها.. فأخذت تكتب أشعارها بإحساس عميق.. ولاحظت أن أباها بدأ يعاملها برقة.. فأسمعته بعض أشعارها.. وطلبت منه اقتناء كلب من كلاب الصيد أطلقت عليه (فلاش) لعله يؤنس وحدتهاأخذت تقرأ لشعراء كبار مثل "بايرون" و"شيلي" وكذلك "روبرت براوننج".

وكان روبرت فى الرابعة والثلاثين حينما قرأ لإليزابيث أشعارها.. فتطلع إلى التعرف عليها عن طريق صديق من أقرباء أبيها.. مما أسعد اليزابيث وجعلها تستعيد الثقة بنفسها.

لكن اليزابيث رفضت مقابلة الشاعر الكبير خوفاً من أبيها، وأيضاً حتى لا يفاجأ براوننج بحالتها الصحية.. لكن براوننج صمم على رؤيتها لأنه وجد فيها ضالته المنشودة.. وظل عاماً كاملاً يراسلها ويؤكد حبه لها ولأشعارها.. حتى تم اللقاء فى غرفتها فى أثناء غياب أبيها.

واكتشفت اليزابيث أنها أساءت الظن والتقدير للشاعر الكبير، فقد أعجب بها وطلب منها الزواج.

لكن كيف تتزوج.. وهل سيوافق أبوها على ذلك.. وهى مريضة العاجزة.

ظل براوننج يواصل زيارته دون علم أبيها.. وكانت لهذه الزيارات أثرها الإيجابي فى تحسن صحة اليزابيث.. حيث حدثت المعجزة، ففي ذات يوم نهضت من فراشها وتغلبت على مرضها.. وخطت بضع خطوات.

وبعد ثلاثة أشهر وبفضل تشجيع براوننج.. تمكنت اليزابيث من السير مسافة قصيرة برفقته.

لقد كانت زيارات الشاعر الكبير تفتح لها آفاقا من العلم والأدب والحوار والثقة بالنفس.. ورفض اليأس.. وبدأ الشاعران يتبادلان قصائد الحب الصادق... ثم تزوجاً دون علم أبيها.

ولما عرف أبوها ذلك ثار ثورة عارمة وقال: إن ابنتي في قبرها الآن فلننس الأموات.

هكذا كانت قسوة الأب.. على حين بدأت اليزابيث مع براوننج صفحة جديدة من السعادة والإبداع.. وفشلت كل محاولاتها لإرضاء أبيها.

ويرحل الزوجان إلى إيطاليا مع وليدهما الوحيد.. وفي عام ١٨٥٧م يموت الأب وتحزن اليزابيث.

وفي عام ١٨٦١م توفيت اليزابيث براوننج بعد أن ملأت الدنيا شعراً وحباً للحياة.. وكتب عنها أندريه مورو:

"لقد عاشت فوق الشوك لكنها أبدعت نشيد الحياة، ليبقي مفعماً بالحب والنور والحرية.